فى سماء الفن

إلى روح حافظ

أضاءَ بليلِ الحياةِ فأضحى نهاراً جميلاً بغيرِ مساءْ
وأضحى هجيرُ الخلودِ ظلالا وظلّ الخلود بديعَ الرواءْ

« • »

توارَى ولكن سناه طريفٌ يُنير الحياةَ ويجلو السماءْ
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمى الفنون رهيب الفناءْ

« • »

رأينا خلالَ الظلام بريقاً فجدّدَ فجراً بليغَ الصفاءْ
وبين الركون المميت تَسامى فعلّم موتى النفوسِ الاباءْ
ولكن هدايا الزمان رياءْ فأين عطاءُ حواه الوفاءْ ؟
وأين شعاعٌ نبيلٌ نَهادى يُذيب الغموضَ ويمحو الخفاءْ ؟

« • »

تَوارَى ولكنْ سناه طريفٌ ينير الحياةَ ويجلو السماءْ
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمى الفنون رهيب الفناءْ

المهدى مصطفى

تشكرك سورية يا حافظ

فارقد بسلام !

مات حافظ ابراهيم وكان أعظم الناس لوعة عليه أهل سورية . ولا غرو ، فحافظ لم يكن لمصر بكليته ، بل كانت أفكاره أبداً تسير وتنطلق نحو ذلك القطر الذى عرف فى أبنائه خلاناً أوفياء ، ورفاقاً خلصاء .

بكته سورية ولم تشأ أن تتعزّى عن فقده . بكت فيه صديقاً حفياً ، بكت فيه حبيبا غالياً ، بكت فيه ابناً ثانياً ، وعزاؤها فيه صعب المنال . وانى أجاهر بأن

لحافظ منزلة لدى أبناء سورية لا يدانيه فيها شاعر مصري آخر ، بل أقدر أن اصرّح ان اجلالهم له يفوق اجلال أبناء النيل لشاعرهم !

كان حافظ مصرياً صميماً ، يتعدله بحب مصر ، كثير الوجد بها . لكنه أحبّ سورية حباً مماثلاً لوطنه ، فخلع عليها من قصائده خيرَ بردها ، وجللها من ألحانه بأشجاها ، ولم ير غضاضة أن يصيح :

لى موطنٌ فى ربوع النيل أعظمُهُ ولى هنا فى حماكم موطنٌ ثانِ
انى رأيتُ على أهرامها حُلَلاً من الجلالِ أراها فوق لبنانِ
حسبتُ نفسى نزيلاً بينكم فاذا أهلى وصحبى وأحبابى وجيرانى

ولا يرى وجهاً للملامة فى تعلقه بحب أبناء الشام ، وفرط ولائه لهم ، وانه ليجد نهاية الفخر فى هذه المودة ، فيذيع على رؤوس الاشهاد :

إن يكتبوا لى ذنباً فى مودّتهم فانما الفخر فى الذنب الذي كتبوا !

كان فذاً بين أقرانه شعراء مصر ، كان علماً بين الداعين الى الوئام ، كان فريداً فى نشره ألوية المحبة بين ابناء القطرين ، ولقد أجاد فى وصفه العلائق بينهما :

اذا ألمتْ بوادى النيل نازلةٌ باتت لها راسياتُ الشام تضطربُ
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذرى لبنان منتحبُ

وطالما أشار إلى ان السوريين هم دواماً عند حسن الظن بهم ، يجعلون همّهم الأوحد خدمة كل بلد نزلوه ، وكل قطر حلّوا فيه ، بذات الاخلاص وذات المحبّة التى يخدمون بها بلادهم . وطالما أشار الى جهادهم فى مصر :

إنّا رأينا كراماً من رجالهم كانوا عليهم لدينا خيرَ عنوانِ
كم فى نواحى ربوع النيل من طُرَفٍ للايازجيّ وصَرّوفٍ وزيدانِ ؟
وكم لاحيائهم فى الصحفِ من أثرٍ له المقطم والاهرام ركنانِ ؟

ولم يكن ليقتصر عند ذكر الصداقة والاخاء فحسب بين مصر والشام ، فلكم افتخر بمفاخر السوريين كمن يفتخر بمحامد آله وعشيرته . أنظر اليه يقول فى حماسة وحمية وفخر :

بأرض «كولمب» أبطالٌ غطارفةٌ أسدٌ جياعٌ اذا ما ما وُوثبوا وثبوا
لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عَددٌ سوى مضاءٍ تحامى ورده النوبُ
أسطولهم أملٌ فى البحر مرتحلٌ وجيشُهم عمل فى البر مغتربُ
لهم بكل خضم مسربٌ نهج وفى ذرى كل طود مسلك عجبُ
لم تبد بارقة فى أفق منتجع إلا وكان لها بالشام مرتقبُ

أو ما صاح به ههنا :

عافوا المذلةَ فى الدنيا فعندهم عزّ الحياة وعزّ الموت سيانِ
لا يصبرون على ضيم يحاوله باغٍ من الانس أو طاغٍ من الجانِ
تيمموا أرض «كولمب» فما شعرت منهم بوطء غريبِ الدار حيرانِ
سادوا وشادوا وأبلوا فى منا كبها بلاء مضطلع بالامر معوانِ
فى الكون مورقهم فى الشام مغرسهم والغرس يزكو نقالاً بين بلدانِ
إن لم يفوزوا بسلطان يقرّهم فنى المهاجر قد عزّوا بسلطانِ
أو ضاقت الشام عن برهان قدرتهم فنى المهاجر قد جاءوا ببرهان

لا يرضيه ذلك فقط ، بل انه ليذكر يد سورية على العالم وائرها فيه حتى اليوم ، وانه ليشير من طرف خفى الى عبقرية الفينيقيين — أولئك الاجداد الذين عركوا الدهر وأبلوه ، ولم يقدر بنوائبه على محق مفاخرهم وآثارهم — وانه ليبدى صراحة ان الغربيين من اميركيين وسواهم يفوتون ذمامهم نحو سورية بانشائهم دور التعليم فيها :

أرى رجالاً من الدنيا الجديدة فى الـ دنيا القديمة تبنى خير بنيانِ
قد شيدوا آيةً بالشام خالدة شتى المناهل تُروى كل ظمآنِ
لئن هدوكم لقد كانت أوائلكم تهدى أوائلهم ازمان ازمانِ
لاغروا إن أعجزوا فى الارض وابتكروا فيها أفانين اصلاحٍ وعمرانِ
فتلك دنياهمُ فى الجو قد نزعت أعنة الريح من دنيا سليمانِ

ما ذا أزيد بل ما ذا أقتطف من ثمار شعره الشهية ؟ لا أدرى والله أى شىء أختار وأيّه أغفل؟ وليس لى إلا أن أحيل القارىء على ديوانه وعلى قصائده المنثورة هنا وهناك فى الصحف والمجلات — التى لا يريد جمعها أحد . . . وأخاف على حظ

حافظ العاثر أن يفنى فى حظ شوقى المجدود ، فلا يُلتفت إلى جمع آثاره وحفظها !

وقف حافظ فى منتدى الجامعة الاميركية فى بيروت يرثى نفسه فى ذات القصيدة العصماء التى مدح بها الشام ، يرثى نفسه فى ألم وحرقة . . . يرثى ذاته أمام من أحبّوه وأجلّوه ، ولم يجدوا كيفية يعبرون بها عن شعورهم العميق تجاهه سوى تلك الحفلة الأدبية الكبرى يشيدون فيها بمآثره وفضله ، وتلك الحفلات العديدة فى دمشق وسواها إمعاناً فى التكريم والشكران ، وذلك الوسام بعلقة رئيس الوزارة على صدره .

وقفَ يذكر بؤسه ، ويشكو زمانه ، ويتحسر على حياته ، ويتمنى لو أُتيح له انتجاع الصحة دائماً فى رياض لبنان وجباله الشمّ ، فيصيح من كبد حرى:

يا ليتنى كنتُ من دنياىَ فى دعةٍ قلبى جميعٌ وأمرى طوع وجدانى
أقضى المصيفَ بلبنان على شرفٍ ولا أحول عن المشتى بحلوانِ

ثم يعود فيعرج على ذكر الموت ، ويحنّ اليه ، ويرتقب مجيئه ، وتكاد تشعر بقرارة نفسه تكاد تسيل أسى بين كلماته المحزنة :

ولّى الشبابُ وجازتنى فتوّنهُ وهدّم السقمُ بعدَ السقمِ أركانى
وقد وقفتُ على الستين أسألها أسوّفت أم أعدّت حُرَّ أكفانى؟
شاهدتُ مَصرعَ أترابى فبشّرنى بضجعةٍ عندها رُوحى وريحانى
كم من قريبٍ نأى عنى فأوجعنى وكم عزيزٍ قضى قبلى فأبكانى
إنى مللتُ وقوفى كل آونة أبكى وأنظم أحزاناً بأحزان !

لقد ملّ حياةً لم تبذل له سوى مرارة وحنظل ، ولم تكشف له يوماً عن صدرها إلا لترميه إياه مدججاً بسهام النوائب والمحن . ملّ حياة وجهها بائس وقلبها غدار لا يكاد يغره منها سنا محياها حتى تجابهه بنصالها المحددة ، تخترق كعبة آماله ، وتهدمها الى الحضيض .. فماذا له بها ؟ وها قد جاءته المنية أخيراً ، فاخترمته ، وحرمت اهله وصحبه وخلانه صحبته الرقيقة ، ولم تكد تضمه تحت طبقات الثرى فى ذلك القبر الموحش الحقير ، حتى أخذت اليها شاعراً كسف بصيته وعبقريته : ذكرى شاعر النيل !

فى الحياة والموت لم يصادف حافظ إلا حسكا وشوكاً . فى الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً وتجاهلا ، فحق له وهو يعلم حظه المكدود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المضادّات تقتحم عليه عرين راحته ، وتكاد تسدّ عليه منافسه ، فتذيقه من علقمها الواناً واشكالاً !

اىّ حافظ !

ان السوريين قاطبة ليكرمون فيك دائماً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التى يزفها اليك احدهم فى هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيها الرابضين فى الوطن والمهاجرين فى اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فانّ ذكراك حيّة خالدة فى أفئدة السوريين ، منقوشة ابداً على صفحات قلوبهم .

وفى ذمة الله ياحافظ !

ميشيل سليم كبير

المديح والشكوى والرثاء

فى شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة فى مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقّب بالشاعر الاجتماعى ، وشاعر النيل ، وشاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذى كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يسره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : «وَلع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عاثر الجد ، تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثّه ما يلدغ لدغ النار الكامنة فى غير متّقد»

ان لحافظ أشعاراً فى شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذى يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى أبد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والخلان صوّر لك روحه كأنها تتقلب على